2013 12 30

بدأت هيلاري كلامها قائلة: أخبرتك عن حشد التحقيقات شديدة الإزعاج التي ظلت تطاردنا على امتداد مدَّتي بل الرئاسيتين كلتيهما، وقد تمثل أكثرها إرباكًا بموضوع صفقة عقارات دخلنا فيها ببراءة عام 1978م، في أثناء توليه منصب النائب العام في آركنسو، بات التحقيق معروفًا باسم (وايتووتر) نسبة إلى اسم شركة تطوير الأراضي، شركة وايتووتر التنموية التي أسسناها مع الزوجين جيمس وسوزان كاكدوغال من ليتل روك، لا أستطيع أن أفكر بالاسم من دون رعشة، نحن الأربعة اشترينا مئتين وثلاثين فدانًا من البوادي القريبة من وايت ريفر وكروكدكريك في ناحية ماريون، ثم خسرنا إذ عجزنا عن تطوير المقاسم وبيعها.

ومع ذلك تمادوا بإصرار في اتهامنا بالاستفادة من جمعية ليتل روك للادخار والتسليف التي كان ماكدوغال قد أسسها في ثمانينيات القرن العشرين، والتي ما لبثت أن أفلست، هل تستطيعين أن تصدقي؟ تبين- بالطبع- أننا أبرياء، غير أن المحامي المستقل بقي مصممًا على مقاضاتنا! نابشين جروحًا قديمة، وسَّعوا نطاق التحقيق للغوص في انتحار فنس فوستر جنبًا إلى جنب مع طرد مستخدمي مكتب سفريات البيت الأبيض.

مذعنًا لانتقاد الجمهوريين، طلب بل من النائبة العامة جانيت رينو في عام 1994م تعيين محام مستقل لجلاء قضية وايتووتر. ومن عينته كان محاميًا جمهوريًّا يدعى روبرت فيسك، أزاحته هيئة قضاة واشنطنية وعينت كنث دبليو ستار بدلًا منه، وستار هذا كان محاميًا عامًا في إدارة جورج إتش دبليو بوش (الأب)، وقد تولى مهمة إزعاج رجل بريء دائب على بذل كل ما يستطيعه من جهد لتحسين أوضاع البلد.

لا بد لي من أو أؤكد لك- يا دكتورة- أن أيًّا منًّا نحن والآخرين في إدارتنا، لم يدن بأي مخالفة في أنشطة ذات علاقة بوايتووتر، على الرغم من أنهم واصلوا ملاحقتنا القضائية. كذلك استنتجت التحقيقات أن فوستر كان قد انتحر، وأن طرد أركان مكتب السفر لم ينطوِ على أي مخالفة. من شأنك أن تظني أن ذلك كان كافيًا لجعل ستار يكف عن إزعاجنا، ولكنه لم يفعل، بل ظل يتابع إزعاجه مدفوعًا بنزعة انتقامية.

دأب عملاء ستار ووكلاؤه على إجراء الاستجوابات المطولة غائصين في خيانات بل الزوجية، كما لو أن الأمر كان يخص أحدًا سوانا؛ مستخدمة سابقة في وزارة التنمية الصناعية الآركنسوية تدعى باولا جونز رفعت دعوى في عام 1994م زاعمة أن زوجي كان قد تحرش بها في غرفة أحد فنادق ليتل روك عام 1991م، وبحماقة حكمت المحكمة العليا في الولايات المتحدة بعدم احتمال تمخض النظر في الدعوى عن إلهاء بل عن واجباته الرئاسية.

وفي عام 1998م إبان رئاسته، قامت لندا تريب؛ إحدى صديقات مونيكا لوينسكي الحميمات، بتزويد ستار بشرائط تسجيل تحدثت فيها لوينسكي عن علاقتها مع الرئيس، وبل يبقى مجرد طفل صغير! وعلى الرغم من أن قضية لوينسكي لم تكن ذات علاقة بأمور وايتووتر، فإن ستار برَّر الاستمرار موسعًا دائرة التحقيق زاعمًا أن الأمر كان جزءًا لا يتجزأ من أحد أنماط قيام بيت كلنتون الأبيض بعرقلة العدالة. في أيلول/سبتمبر عام 1998م، رفع ستار إلى

مجلس النواب تقريرًا مطبوعًا مطولًا عن حماقات بل مع لوينسكي، بما فيه محاولاته الرامية إلى إخفائها إبان إدلائه بالشهادة أمام هيئة محلفي ستار ومن خلال شهادة خطية قدمها في الدعوى المدنية التي رفعتها باولا جونز.

ما أثار رعبي أن لجنة المجلس القضائية اتهمت بل بـ (جنايات وجنح)، جديرة بأن تشكل أساسًا لاتهام أي رئيس وإزاحته، وساقت أربع مواد اتهام ضده. أما كيف نجونا من ذلك كله، فلن أعرف أبدًا. في كانون الأول/ديسمبر عام 1998م أقدم المجلس- مقترعًا من منطلق حزبي- على تبني مادتين: الحنث باليمين أمام هيئة محلفين وإعاقة العدالة، بأكثرية (228) مقابل (206) و (221) مقابل (212) صوتًا. كان الديمقراطيون، بمن فيهم أنا شخصيًّا، يظنون أن الاتهام لم يكن إلا نوعًا من الانتقام الثأري الجمهوري للإجهاز على رئيس جمهورية ذي شعبية.

لحسن الطالع، وحده مجلس الشيوخ وبأكثرية الثلثين، يستطيع إزاحة رئيس الجمهورية، في شباط/فبراير عام 1999م، بعد الاستماع إلى الحجج التي ساقها أعضاء البرلمان الجمهوريون والمدافعون عن رئيس الجمهورية، أسقط مجلس الشيوخ تهمة حنث اليمين بـ (55) مقابل (45) صوتًا، وانقسم المجلس نصفين (50) مقابل (50) بالنسبة إلى تهمة إعاقة العدالة.

أفاد ستار بأنه كان سيلتمس تهمًا جنائية ضد بل فيما يخص قصة لوينسكي بعد انتهاء مدة الرئاسة، إلا أن بل بادر قبل يوم واحد من ذلك- وبإلحاح مني- إلى إطلاق تصريح اعتذر فيه عن الإدلاء بشهادة غير صحيحة أمام هيئة المحلفين الكبرى، فأغلق ستار التحقيق. واستنادًا إلى اعترافه بالإدلاء بشهادة كاذبة والإجراءات المتخذة من قبل لجنة أخلاق المهنة/ أُجبر بل- ويا لأسفي- على التنازل عن إجازته التي تمكنه من ممارسة المحاماة في آركنسو.

يتساءل الناس بحيرة عما مكنني من تحمل وطأة الهجمات علينا؛ سألني أحدهم عن قدرتي حتى على النهوض صباحًا، وأنا على يقين بأن التهم باطلة،

بـلا أي أسـاس، لا فكـرة لديهـم عـن مـدى صعوبـة الأمر؛ انسـحق قلبـي، وكان الجميع يعرفون ذلك.

في قـرار بالـغ الصعوبـة، قرار أشـبه بتجرع السـم، اخترت الوقـوف مع بل، أقلـه في هـذا المنعطـف، قررت إنقاذه مرة أخرى، كرمـى لعينه هو، وكرمى لعين العائلة ومن أجل مصلحة البلد في الوقت نفسـه، لم أتوصل إلى اسـتنتاجي هذا علـى النحـو الذي تفعله امرأة صغيرة مثل تامي وينـت التي وقفت مع رَجُلها. أنا وقفـت مـع بل لأنني أحبه وأحترمه، وأقدِّر عاليًا ما تعرض له وما تعرضنا له من محن جنبًا إلى جنب.

إذا لم يكن ذلك كافيًا بنظر بعضهم، فليكن! كذلك يجب أن أعترف بحاجتي إليه قدر حاجته إلي، لأسـباب شخصية ومن أجل مستقبلنا السياسـي؛ فلو هبط إلـى الأسـفل لجرني معه إلى الدرك؛ لذا كظمـت غيظي وابتعلت مهانتي ووقفت مع رَجُلي أقله في العلن، أما على الصعيد الشخصي فقد تمت إحالته من جديد إلى النوم على الأريكة مدة شهرين.

بعـد التوصـل إلـى ذلـك الاسـتنتاج، صرت أدعـم بـل وأؤيده على المـلأ كلما اهتديـت إلـى فرصـة، فمع اقـتراب موعـد تصويت المجلـس على قـرار الاتهام، توسـلت الجميـع طالبة ممارسـة المصالحـة بدلًا من السـعي لأخذ الثـأر، وحين طلـب إليَّ ريتشـارد غيبهـاردت أن أخاطـب أعضاء البرلمـان الديمقراطيين قبل التصويت على قرار الاتهام، ألقيت ما قيل لي إنه كان خطابًا مشحونًا بالعاطفة وفاعلًا، ناشدت فيه الديمقراطيين أن يقفوا خلف رئيسهم، قلت أنا أحب زوجي وأدعمـه، رغـم عـدم رضاي عن سـلوكه، عـبرت عن الإيمـان بعدم كـون توجيه الاتهـام علاجًا؛ لأن بل كان رئيسـ جمهورية رائعًـا، رأيت أن علينـا أن نمكنـه من مواصلة إنتاج تغييرات من شأنها إغناء حياة الأمريكيين.

يبـدو أن خطابـي لامس قلوبهـم؛ لم يبـادر أي ديمقراطـي إلـى عبـور خـط الحـزب للالتحـاق بركـب الجمهوريـين الدائبين علـى فعل كل شـيء بغية توجيه

الاتهام إلى بل، كان هذا نقيضًا صارخًا لما جرى قبل خمس وعشرين سنة حين التحق جمهوريون بركب الديمقراطيين الراغبين في توجيه الاتهام إلى ريتشارد نكسون، غير أن الواقع هو أن بل كلنتون رجل طيب القلب، لم يكن ريتشارد نكسون آخر، حمدًا للرب الذي لا يحمد على مكروه سواه!

زاد تقديري أكثر من أي وقت مضى لنصيحة إليانور روزفلت في السياسة؛ حيث يكون المرء بحاجة إلى جلد وحيد القرن (التمساح)، ومع أن درعي لم تكن صعبة الاختراق، فإنها تصلبت عبر الأعوام مع تكسر سهام النقد على نصال اللوم، حتى بت لا أصحو من ضربه إلا وتكون التالية قد وصلت، أتقنت فن وجوب امتلاك مشاعر الطامح إلى الفوز بالجائزة في الملاكمة قبل أن تبطحه اللكمة الأخيرة، مَن قال إن المرء يستيقظ يومًا ويقول: «لن أمكِّنهم مني اليوم»؟! ما من يوم إلا وكان أصعب على التحمل من اليوم الذي سبقه.

أضافت هيلاري: ما فاجأني وسرني أنني كنت قلقة من أن يفضي غلافي الخارجي المتصلب إلى حجب مشاعري الكامنة في العمق، تلك المشاعر التي تصرين دائمًا على استفزازها، تظنين أنني لست واعية لوجودها، إلا أنني طالما بقيت مطردة المراقبة لنفسي بحثًا عما يشير إلى تعطل قدرتي على بلوغ عواطفي، تعين علي أن أعرف حقيقتها كي أتمكن من رعايتها.

هل تعلمت ذلك مني أنا؟ تساءلت: ولم ترغب في إشعاري بالرضا بالاعتراف؟ أم أنها كانت واعية حقًّا للأمر في اللحظة؟ من يدري؟

في خطاب ألقيته في ذلك الوقت بكلية غاوتشر البلتيمورية، سألني أحدهم عما إذا كنت أرى أن التهم الموجهة إلى بل كانت زائفة. التزمت الخط الذي اعتمدته وقلت بالطبع كنت أراها كذلك، إلا أنني أضفت أن تعرض شخص تحبه لمثل هذه الهجمات والانتقادات يبقى مع ذلك مؤلمًا.

ثم سئلت عن سبب تعرض بل لمثل ذلك الهجوم، أذكر جوابي جيدًا؛ قلت كانت ثمة محاولة مكثفة لنسف وتقويض جملة إنجازاته الرائعة رئيسًا للجمهورية. خصومه هاجموه شخصيًّا، أضفت، لأنهم أخفقوا في هزيمته سياسيًّا.

في العمق، أنا واثقة من أن التاريخ سيتولى الكشف عن الحقيقة، عن أن بل كلنتون كان أحد أعظم رؤساء الجمهورية الذي كان بلدنا متوفرًا على ما يكفي من الحظ لينعم به. أحدث إحدى عمليات الإحياء الاقتصادي في التاريخ الأمريكي؛ أوجد تسعة عشر مليون فرصة عمل، ونجح في موازنة موشكة على التعرض للتدمير من قبل أسلافه، تاركًا فوائض قادرة على دعم الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية لسنوات قادمة.

بسبب اعتماداته الجامعية، تمكنت نسبة عشرة بالمئة إضافية من الالتحاق بالكليات. كل من هذه المكاسب قد لا يشكل زلزالاً وحده، غير أن من شأنها مجتمعة أن تشكل خطوة هائلة إلى الأمام، وهذا كله كان يتواصل فيما كان بل مشغولاً بعملية التعرض لتوجيه الاتهام! أي جمهوري أو ديمقراطي كان قادرًا على تحقيق مثل هذا النجاح؟!

غادرت هيلاري عيادتي مطرقة، كما لو لم تكن راغبة في تمكيني من رؤية عينيها.